

ماركيز

الجزء الخامس

الدكتور مزوار محمد سعيد

الغبارُ وهباؤه يتطايران حول الأستاذ ماركيز بينما هو يحمل بين يديْه رواية "فحلة"، تلك الرواية التي كتبها صاحبها باللهجة المحلية، مستعملا في طبعها الحروف العربية تارة، وتارة أخرى الحروف اللاتينية، وكما وصفها صاحبها – أستاذ بجامعة وَهْرَن في مجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا – هي فاتحة طريق لأدب محلي على أرض الجنَّة ما وراء البحر.

تدور أحداث رواية فحلة بشكل غريب للغاية، وبطريقة سردية أنيقة على طريقة حكايات الأجداد، ترسم هذه الرواية حدود الصراع بين "عسكر الظلام" من جهة، وفرقة "الفرحة والزين" مِن جهة مقابلة.

ما تُثيره رواية "فحلة" هي اللغة المستعمَلَة في سرد أحداثها، هي لهجة محكية اعتاد القراصنة على استعمالها منذ نعومة أظافرهم، هُم يستعملونها في الأسواق، المحلات التجارية، في الحافلات، في الحدائق والمساحات العامة، لكن ولا مرة تجرأ أحدهم على الكتابة بها بهذا الشَّكل كما جال في ذهن الأستاذ ماركيز، مع وجود الكثير مِن الأشعار الملحونة المحكية والمكتوبة، والتي يرددها أحفاد القراصنة مثلما رددها مِن قبلهم آباؤهم وأجدادهم.

ما تثيره اللهجة المحلية التي استخدمت في سرد أحداث رواية فحلة، يتقاطع مع ما هو مطروح على أرض الجنة ما وراء البحر، لأنَّ شرق هذه البلاد الشاسعة يتحدث لهجات تختلف من مساحة ضيقة إلى أخرى، بل قد تطفو على السطح اختلافات لجهات كثيرة في المنطقة الواحدة، وهنا نجد الكثير مِن المشككين الذين يطرحون سؤال "زرع بذور الانفصال" بين صفوف أبناء الوطن الواحد؟ فكيف للذي يكتب بلهجة أقصى الغرب أن يفهمه القارئ الذي يبعد عنه عشرات الكيلومترات ويسكن عمق الصحراء، بينما هو لا يدرك الكثير من مفردات القاموس اللغوي للكاتب المحلي ذاته؟

مِن جهة مقابلة نجد أنَّ الكثير من الأفلام التي صورت في مرحلة الثمانينات من القرن العشرين واعتمدت في تقديم أحداثها على اللهجة المحلية، قد صارت أيقونات لدى كافة أبناء الشعب، من أقصاه إلى أقصاه، كما أننا نلاحظ نجاح الكثير من الكوميديين الذين يعتمدون اللهجة المحكية/المحلية في تقديم عروضهم، وها هُم يحتلون قلوب كافة أبناء الوطن كذلك.

ما يُعاب على الكتابة باللهجة المحلية كما يرى الأستاذ ماركيز هو أنَّها لا تزال حبيسة سجون اللهجات، ولم ترتقِ بعد إلى مستويات اللغات الأكاديمية، فهي بلا نحو، ولا صرف ولا حتى قواميس تجمع مفرداتها، كما أنها لا تتعدى حدود المنطقة الجنوبية للبحر المتوسط، أين يتعامَل الجيران فيما بينهم بها مع تنوع رهيب للمفردات والمصطلحات وحتى اللكنات، بجوار لهجات أمازيغية كثيرة.

لكن؛ وهذا واضح بشكل شامل في رأي ماركيز، هي تلك المساندة الكبيرة لهذه المبادرة، رغم أنَّه يجدر التنويه بأنَّ ماركيز نفسه – كونه قرصانا – قد حاول قبل عدَّة سنوات أن يكتب بلهجته المحلية، وبعد طول صبر وبإصرار كبير، تمكن من كتابة مقال بها، وقد تقدَّم خطوة أخرى بحيث قد أرسله إلى الكاتب "أمين الزاوي" الذي ردَّ عليه شاكرا إياه وقائلا له بالحرف الواحد: الله يعطيك الصحة.

ومع ذلك وفي خضم محاولة ماركيز للكتابة بلهجته المحلية، فإنَّه وجد نفسه أمام مشاكل تقنية كثيرة، فبالإضافة إلى انعدام الدعائم الأساسية التي تمة الإشارة إليها سابقا لهذه اللهجات لترتقي إلى لغات، فقد وجد الأستاذ ماركيز نفسه أمام تحدي استعمال البرامج التقنية أثناء الكتابة، وخاصة في مرحلة مراجعة ما كتبه، لأنَّ كافة الكلمات المستعملة في اللهجة المحكية/المحلية هي كلمات جديدة على قواعد البيانات المختلفة، ممَّا تعذر التفريق بين ما هو صحيح لغويا وتركيبيا وما هو خاطئ، وبالتالي فإنَّ الصعوبات الرقمية قد دفعت ماركيز إلى الانكماش حتى موعد عثوره بين أروقة مكتبة الشمس في قلب مدينة الفن والتاريخ على رواية فحلة، تلك الجوهرة المحكية بطريقة شعورية عميقة.

على أرض القراصنة تجتمع التناقضات كلها، تجد الشمس ساطعة والمطر ينهمر على رؤوس العباد في عزِّ فصل الرَّبيع، تجد القراصنة يشتكون ليل نهار مِن بؤسهم بينما هُم متمسكين به حدَّ التعصب، تجد البياض ينتحر قربانا للحياة، ثم يسجى في تابوت الليالي

تحت وقع الزغاريد ابتهاجا بما هو عليه، هي حالة نادرة الوقوع، ولكنَّ الأستاذ ماركيز قد اعتاد عليها.

في حافلة كثيرة العطب وملتزما الصمت المطبق، سمع ماركيز احدى العجائز تتحدث عن نظرية غريبة، تقول هذه النظرية العبقرية بأنَّ هناك ثلاثة أنواع من القراصنة هُم الجائعون دوما ولو مَلَكوا أموال الحياة والوفاة معًا، وراحت تسرد على مسامع الجميع كيف أنَّ المعلمين، أبناء الشهداء والمجاهدين هُم الأكثر جوعا بين غيرهم.

عالج ماركيز هذه المعلومة في ذهنه كثيرا وعلى طول الطريق المؤدي إلـى تلك القرية ذات الطابع الإسباني، نعم! لكي تعيش على أرض القراصنة عليك أن تبتعد عن التعليم، عن الدفاع عن الوطن وعن الموت في سبيل هذه الأرض المباركة، عليك أن تنتشر الجهل وأن تكون بالأساس جاهلا جهلا مظلما، وأن تكون خائنا لهذا الوطن.

في وطن لا يعترف فيه سادة القرار بالنبلاء الصادقين، تصبح هذه الآراء العنصرية في حقِّ أهم الفئات الاجتماعية/الثقافية أمرا عاديا للغاية، قراصنة يحتفلون بكلِّ ما هو تافه، ينشرون السخافة في كلِّ مكان وزمان، مدمنون على كافة القضايا الوسخة، يعملون بجهد حتى يظهروا في قالب مزخرف بالكذب، حتى صارت الحياة مزيفة تماما، لا المغني هو مغني، لا الكاتب له علاقة بالكتابة ولا الأستاذ له رابطة بالعلوم والمعارف.... الخ.

رحم الله المؤرخ قاسم سعد الله، فقد أوجز مشكلة القراصنة في جملة واحدة: "المعلمون والمثقفون على هذه الأرض مكروهين مِن الجانبيْن، مِن الدولة ومِن الشَّعب"؛ وهذا ما يراه ويعيشه الأستاذ ماركيز يوميا واقعيا؛ بينما تنظيرات القراصنة كلها تحث بنفاق واضح على احترام التعليم والمعلمين.

الشوك لا يعطي لا رحيقا ولا مذاقا جميلا، كذلك القراصنة، وكلُّ دقيقة تمرُّ فيها على ماركيز بينهم تؤكد له هذه الصورة الواقعية بشكل أكثر بروزا، لهذا يصبح الحق في البحث عن وطن جديد لماركيز حقا مقدَّسًا عندما يتحوَّل الوطن إلى أخطبوط يلتهم النبلاء مِن أبنائه المخلصين.

لكنَّ الأمر وبالمقابل عند ماركيز مختلفا، هو لا يرى في وطنه عدوا، رغم كلِّ ما يلاقيه بسببه، لا يرى فيما يحصل له أمرا غريبا، لأنَّ ابن الوطن في كافة الأوطان، هو الإنسان غير المستفيد من امتيازات الأوطان عينها، فهذه الأخيرة غالبا ما يستفيد منها الجبناء والأوغاد، وماركيز طبعا ليس واحدا مِن هؤلاء.

ومع ذلك هناك مشاعر متناقضة تغزوا هذا الفيلسوف، هو حائرٌ بين الأوراق والجذور، بين الأحلام/المستقبَل، والعراقة/التقاليد والقيم السامية، لا يزال متأرجحًا بين ما يريده وما يجب عليه حفظه بإيمان غزَّ نظيره في كافة الثقافات والفلسفات، الأمر صعب جدا، هي وضعية خانقة عندما يقف الإنسان على مفترق الطُّرق، وعليه اختيار أحدها ليمضي قدما، إمَّا الطريق الإيطالية أو الطريق الأميركية؛ وهُما ضدان لا يجتمعان.

هو حوار سيطول بشكل لا يمكن لأحد توقع نتائجه، هو حوار مباشر وصريح يخوضه الأستاذ ماركيز مع ذاته العميقة، يكتشف به نفسه مِن جديد، لأنَّ المعركة الأكثر أهمية خلال عبور الإنسان هذه الحياة، هي تلك التي يخوضها ضدَّ طموحاته كحليف لمبادئه، هو تمرُّد مِن نوع فريد، هو ثورة على الجموح.

السير على خطى ماكسيموس مكلف نفسيا ومعنويا، وتبني أسلوب الرجل السابع خطوة خطيرة للغاية، وما بينهما نجد الأستاذ ماركيز مترددا، حذرا وحاملا لطاقة هائلة يقاومها حتى لا تخنقه بحيويتها.

خرج ماركيز من "حانة الخشب" وهو يترنَّح تحت قطرات المطر الغزير في أحد أيَّام شهر أبريل من هذه السَّنة، هذا الشَّهر المعروف بين القراصنة بأنَّه شديد البرد، لدرجة أنَّ حيوان الخنزير يشعر فيه بالبرد هو أيضا كما هو معروف عند أسلافهم، سار بضع خطوات، بعدها تعثَّر بإحدى القطع المعدنية الموجودة على حواف طرقات القراصنة، صرخ بشدَّة بسبب الألــم، قبل أن يسكت لفينة من الزمن، تلك التي سمحت له بارتداء قبعته التي تدحرجت بجانبه، لكنه أعاد الصراخ ثانية بسبب الحرقة لا الألم، كانت صرخة واحدة قوية قال فيها: أتركوا نوفيلا دارندريا (**Novella d'Andrea**) تخرج للنور! يا جبناء أتركوها ترى النور!

وعندما لم يجبه أحد بسبب فراغ الشوارع مِن القراصنة، جَمَعَ ما بقي مِن قواه، وثب واقفا وأكمل طريقه نحو غرفته الصغيرة، تلك الطريق التي بدت له طويلة مثل طريق طموحاته وأهدافه.

يعيش القراصنة مفارقة رهيبة تجعل ذواتهم تنقسم حول نفسها، هُم يفكِّرون على الطريقة الأوربية المحضة، يشاهدون أوربا بعيون الحقوق والواجبات، يغارون من الفرنسي الذي يعيش بين أغصان الجنوب الفرنسي وشماله بحرية قلَّ نظيرها على الأرض الأفريقية، يتشوَّقون لمشاهدة الجرماني وهو يعيش حياة كريمة دقيقة على أرض جرمانيا، وعندما يحلمُ أحد أبنائهم بالهروب من الجحيم الذي يعيشه على أرض القراصنة حرفيا وعمليا

والأكثر فظاعة هو يعيشه يوميا، تراهم يهرعون نحو قذف الأوربيين بما ليس فيهم، فإن كان الأوربيون عنصريون كما يقول بعض الأغبياء من القراصنة، فيجب أن نسجل لهم اهتمامهم بأبناء جلدتهم، وحرصهم على ارتقاء بلدانهم نحو المستويات التي تضمن لأجيالهم العيش في بيئة متساوية الفرص ومتكافئة الحظوظ يا أحبائي!

يُدرك الأستاذ ماركيز قبل غيره – سواءً كان ثملا أم لا – بأنَّ أوربا لها جوانبها السلبية، وهذا بلا شك موجود وحاضر، لأنَّ الأوربي ليس مَلاَكًا، لكن الأميرة أوربا وبالمقابل تبقى أقل سوء من أرض القراصنة بشكل كبير، لهذا هو يتمنى أنَّ مَن يشكُو عنصرية أوربا وهو لم يزرها في حياته، أن يكفَّ عن اتهام الناس بما ليس فيهم، إرضاء لأمراض نفسية تغطي وعيه الواهم بشكل لا يتناسب مع مقامه كإنسان.

أوربا تسرق أفريقيا، آسيا وحتى أميركا الجنوبية، وهي تفعل ذلك مِن أجل النعيم الذي يعيشه أبناؤها، في حين أنَّ أبناء القراصنة لسان أحوالهم يردد كلَّ مرَّة "يا ليتنا كنَّا ترابا"، وهذا واضحٌ في كافة عناوين شباب القراصنة وشيَّابهم، طبعا لمَن هو يبصر الواقع ومبتعد عن عمى الأوهام بشكل بعيد.

لا يرغب ماركيز بالعيش على الأراضي الأوربية وهُو الذي زارها وانبهر بمبانيها وحدائقها، بمدى دقة معاملاتها الإدارية ومدى شجاعة سكانها على سبر أغوار يومياتهم، وكم كانت مفاجأته كبيرة ودهشته ساحقة عندما قامت فتاة بعمر الزهور بإرشاده إلى أهمِّ المتاحف والمكتبات وهي التي لم تتجاوز العشرين من عمرها، وكم بقيت في قلبه كعلامة فخر مأساوي عندما قارنها ببنات القراصنة مَن هنَّ في سنها، هؤلاء اللائي لا يزلن يحلُمن بالابتعاد عن المطبخ وأشغال الخادمات، ولو ليوم واحد، أو الخروج لممارسة الرياضة ليلا ولو لليلة واحدة، فرق شاسع بين مَن تعيش حياتها كما تريد متحملة مسؤوليتها في سن مبكِّرة، ومَن تمَّ وأدها منذ ولادتها في الجهل المغلَّف بتبريرات العادات المثقوبة والتقاليد البالية أو حتى الدِّين الذي ينسبه البعض زورا وبهتانا للكتب السماوية.

مَن يذمُّ أوربا والأوربيين مِن أبناء القراصنة عليه أن يراجع حساباته جيِّدًا، لأنَّ هؤلاء الأوربيون قد قدَّموا الكثير للبشرية، وللإنسانية حسب رأي الأستاذ ماركيز، نعم! لقد احتلوا وقتلوا وشرَّدوا وكانوا ولا يزالون يبطشون بشعوب بأكملها، لكنَّ هذا مبرر في نظرهم لأنَّهم يقومون بما يقومون به مِن أجل رفاهية شعوبهم، وبالمقابل فإنَّ الاحتلال، القتل والتشريد على أرض "الجنَّة ما وراء البحر" يقوم به الكولون الجدد في حق أبناء

القراصنة أنفسهم، فرق كبير بين مَن يسرق الآخرين لتسمين أبنائه، وبين مَن يسرق أبناءه ويستعبدهم إرضاء للآخرين.

عفوا أوربا، فكما يبدو فإنَّ القراصنة لا يرغبون بترك نوفيلا تخرج ليقبّلها نور الحياة، مَثَلُهم في ذلك كمَثل مَن يسير على قاعدة: (**Cuius deus venter est**)، والحديث قياس!!

حَمَلَ ماركيز آلته الموسيقية، اليوم هو أحد الأيَّام الهادئة، ذات الجوِّ اللطيف على أرض "الجنَّة ما وراء البحر"، وتوجَّه نحو احدى الحدائق العامَّة، بمجرَّد دخوله ذلك الفضاء الواسع ذا النباتات الحزينة كحزن أجيال القراصنة، بَحَثَ عن أقرب مقعد عُموميٍّ صالحٍ للجلوس، وما إن وَجَدَ واحِدًا، حتى ألقى عليه ما كان يحمله من أشياء وأكياس، قبل أن يلقي بجسمه أيضا، وبعدها بَدَأَ يعزف أحد الألحان الغريبة؛ تلك التي اِعْتَادَ أن يعزفها بعدما يكون قد ثَبَّتَ الأوتار بشكلٍ مناسِبٍ.

هو لحنُ الحياة، يعبِّرُ عن إرادة البقاء القابعة في نواة كافة الأحياء، بعضهم – مثلما هو حال القراصنة – يعبِّرُ عنها بأشكال عنيفة وهجينة، والبعض الآخر – مثلما يفعل النُّبلاء – يقوم بالتعبير عنها بواسطة الفن، وعلى هذا الأساس لاحَظَ الأستاذ ماركيز بأنَّ الفنَّ هو عبارة عن لغة أبدية مقارَنة بحياته القصيرة جدًّا.

فجأة توقَّف عن إنتاج موسيقى، أَخَذَ نَفَسًا عميقا قبل أن يتذكَّر ما قاله رئيس الولايات المتحدة الأميركية رقم 44 في مذكراته عن جدَّته، حيث قال: **"علّمتني توت (اسم جدّته) كيف أحقق التوازن بين وارداتي ونفقاتي وكيف أقاوم الرغبة في شراء أشياء لا أحتاج إليها. كانت السبب الذي جعلني، حتى في اللحظات التي كنت أثور فيها كشاب، أقدِّرُ الأعمال التجارية الحسنة الإدارة وأقرأ الصفحات المالية في الصحف، كما كانت سبب شعوري بالدفع لإهمال المزاعم المبالغ فيها لتفكيك كلِّ شيء وإعادة بناء المجتمع من الصفر، علّمتني قيمة العمل الجاد وبذل أقصى الجهود حتى حين يكون العمل غير ممتع، والقيام بمسؤولياتي حتى حين لا يكون ذلك مناسبا، علّمتني أن أجمع بين العاطفة والعقل، وألاَّ أبالغ في البهجة حين تكون الحياة جيِّدة، وألاَّ أيأس حين تكون الأمور سيِّئة" (بارك أوباما، الأرض الموعودة، هاشيت أنتوان، 2021م، بيروت-لبنان، ص: 145)**.

تنفَّسَ الأستاذ ماركيز بعمقٍ ثانية، وهو يحاول استيعاب الحكمة التي جالت بين كلمات هذه الجدَّة المحظوظة، بحيث أنَّها وجدت أحد أحفادها يدرك معاني هذه الكلمات، فيسير على هداها لتقوده إلى النَّجاح الباهر.

أن يصنع الإنسان "التَّوَازُنَ" (Gleichgewicht) في حياته، بين الواردات والنفقات، ما بين الخير والشر، ما بين الجيّد والسيّءِ وما بين العاطفة والعقل، أمرٌ بالغ الصعوبة، ويحتاج إلى مرونة مرنة للغاية، كما أنَّه بحاجة لتحقيق ذلك إلى صبر وثبات على الهدف، إلى جانب التحلي بالعزم على الطريقة التي شرحها المتنبي ذات يوم.

ما هو مفقود بين القراصنة هو ما سمَّاه سيِّد البيت الأبيض السَّابق بالتوازن، فالقرصان متطرِّفٌ وراديكالي في كافة المواضيع والتصرفات، شديد العناد والتعصب، بمنطق "إنَّه فيل حتى ولو طار"، وهذه الميزة هي التي تعزز الجَهْلَ بين أجيال القراصنة وتزرع الفوضى مِن حولِهم، ليصبح القانون على أراضيهم أداة للقهر، التنظيم لونا من ألوان العقاب والعمل الجاد سذاجة تقع بالهموم كلها على عاتق صاحبها.

مؤسفٌ لإنسان نبيل كماركيز أن يشاهد بأمِّ عيونه البنية الجميلة قومه وهُم يحتقرون الفنون والفنانين، يسخرون منهم، ويعملون على إيذائهم لكلِّ السبل، بينما يملؤون حياتهم بتضخُّم الذات وعبادة الفجور عند كافة المحطات، الأمر يبتعد عن أياديهم ولا يجد لعقولهم طريقا عندما يتعلَّق الأمر بتذوُّق معنى أن يقف ماركيز مبهورا بلوحة فنية رسمها أحد المبدعين، أو أن تنال منه الدَّهشة وهو ينهي كتابا يقطر بالمعاني الحكيمة التي ترشد التائه نحو سبب وجوده في هذه الحياة.

يعود ماركيز إلى العزف ثانية، بعدما أدرك بأنَّ غياب الإنسانية الحقَّة، هو السبب الأساس لاستعمال القراصنة لعنوان "الإنسانية" من أجل اضطهاد بعضهم البعض، وبعضهم الآخر يستعمل عنوان الدين ليقوم بتعذيب أبناء جلدته بالطريقة "الشرعية"، وكلا النوعيْن يحاربهما الأستاذ ماركيز بثلاثة أسلحة: الكلمة، الصورة والفن.

شغَّل ماركيز جهاز الراديو الخاص به، فانبعثت منه وشوشة لا تنتهي، وبالرغم من محاولاته الكثيرة لأجل ضبط الجهاز على رأس إذاعة صافية الصوت، إلاَّ أنَّه لم يُفلِح في ذلك، أعاد الكَرَّة مرة بعد أخرى، وفي النهاية استسلم للأمر، واقع الحال مشوَّش على أرض القراصنة، كواقع الإذاعات التي تصدر البروباغاندا الرهيبة سواءً بسواء.

فجأةً!

سمع ماركيز عبارة صريحة خرجت مِن ذلك المذياع الغريب! قال المذيع: "في أعماق وجدان الإنسانية، موقع غريب لا يزوره سوى المجانين، ششششششششش" عادت الوشوشة.

هزَّ ماركيز رأسَهُ موافقا وأضاف تكملة لتلك العبارة الجليلة بمفرده، فراح بصوت خافت يقول:

أن يجلس النبلاء على حواف الطرقات ليس صدفة، وأن يسأل الأثرياء الناس طمَعا في أموالهم ليس حرجا، أن يصبح الجاهل حاصلا على جوائز نوبل في كافة العلوم والآداب ليست لحظة تائهة، وأن يصبح المؤمن كافرا بكلِّ المعتقدات والديانات ليس أمرا غريبا، أن يقود القرصان مجتمعا فاضلا لم تعد مسألة مطروحة للنقاش، وأن ترتفع رايات الحرية في الأماكن كلّها لم يعد حقا مقدسا، فكافة الموازين هي في متناوَل المجانين، أليس كذلك؟

في لحظة عابرة، صرخ الضمير ليسمعه الجميع، ولكن لم يسمعه أحد، عادت الحياة إلى مقتنياتها الأولـى، أين كان لها الفضل في تحرير كافة العبارات والفقرات من سجون النصوص واللصوص، استساغ القراصنة فرصهم في بناء الفوضى فأبدعوا، وزادوا عليه انبطاحا حتى الزحف على بطونهم، بل تجاوزا كل الحدود بكثير حين صار القرصان قاطِعًا للأرزاق بامتياز.

أن تعيشَ بين هذه المآسي الغريبة عن العقول بمختلف القواعد المنطقية التي تسيِّرها بعقلكَ الخاص، فأكيد أنَّك مجنون يشهق جنونا غامرا، أن تعشق المجانين وتعمل على التمسِّك بما أصابك منه، فأنتَ بالفعل تريد العيش بكرامة لا يفهم معناها القراصنة المزيَّفون، إنَّها الجنَّة ما وراء البحر، أرض يلبس رجالها الأقنعة الكثيرة، وتلبس نساؤها ستائر العبودية القاتلة، لأنَّ هذه الأرض لا تعترف سوى بالصوت المخنوق، الصورة المعتمة والإنسان المشنوق، هذه الأرض اعتاد أهلها على الخوف حتى صار وجبة يومية إلزامية، فلا يخاف جوع الحياة إلاَّ بغياب ذلك الخوف عن طاولة بطشه.

ومع ذلك، وبين هذه الأمواج المختلفة من الفرار بلا قرار، لا يزال الأستاذ ماركيز، ذلك المجنون الذي يحمل بيده اليمنى – تلك اليد المباركة – مشعل الجنون ليضيء البراءة من حوله، هي صفات النبلاء الذين يعملون بكلِّ ما يملكون من شموخ، على رفع الإنسانية نحو توهجها الضائع، هُم لا يزالون رغم ما يعيشونه يوميا، مؤمنين بجدوى الحرية، التحرر والعيش كراما.

ليس هناك مجال للهوان، ليس هناك سبيل للضعف أو الاستسلام، حتى ولو كنتَ قرصانا بالوراثة والتلقين، فإنَّ القيود صُنِعت لتنكسر، وإنَّ الظلام وُجِدَ لتتم إنارته، وما أصعب مهمتك يا ماركيز، ما أصعب إقناع العبيد بأنَّهُم أحرارا!

الحياة عبارة عن مسيرة حافلة بالوقائع والأحداث، بالمباهج والأشواك، ولكنها في الوقت ذاته، هي مسلك لطيف لمَن ينتج النور ويزرع الفن على جوانب الطرقات التي يمر عبرها، فلا يستطيع الأستاذ ماركيز أن يعيش أيَّامه بلا فنون، ولا يمكنه أن يتخيَّل حياته بلا كلمات ولا قواعد تعطي الأناقة التي من شأنها أن تترجم الفوضى إلى ضوابط، تلك الأذرع الصارمة للقانون، الأمر كلّه يستحق المحاولة.

رفض ماركيز تلك العبارة التي كتبت على شاهدة قبر أحد الكتَّاب الأميركيين وقائلة: لا تحاول!

رفضها لأنَّها أولى الرسائل السلبية نحو قامات الضعفاء القصيرة، بل إنَّه اعتبرها أولى المخارز في عيون البراءة والإقدام، أليس أطفالنا أكثر شجاعة منَّا؟ هُم كذلك، فلا تقتلوا شجاعتهم بجبنكم.

تحت خيمة في وسط ساحة المدرسة، كان الأستاذ ماركيز متواجِدا يحضر حفلا دينيا، أين تلتقي الروحانيات بما تدور حوله وفي فَلَكه، أين تمازجت البراءة بما يورَد على أرض القراصنة بمظهر صنَّاع البقاء، إنَّها طقوسٌ يتعلَّمُها القرصان الصغير وهو لا يزال على المهد صبيا، طقوسٌ جعلت ماركيز إنسانًا متمرّدًا على كلِّ شيء تقريبا، له علاقة بالأرض التي يعبدها القراصنة بشكل مريع.

شئنا أم لم نشأ؛ فإنَّ الديانات على اختلافها، هي التي تسيِّر البشر منذ قرون طويلة مِن الزمن، سواء كنتَ متدينا أم لا، معترفا بالدين أم لا، روحانيا أم مادي، فإنَّ فكرة الألوهية، فكرة التسليم لقوى مقدسة، قادرة على تغيير مجرى الفرد الإنساني بشكل كامل، هي الأفكار التي يسير على هداها الرهبان وبني الإنسان سواء قبولا أو رفضا.

لستُ هنا بصدد مناقشة حضور الدين مِن عدمه، لأنَّه حاضرٌ رغما عن أنوف الرافضين له، بل إنني أحاول أن أقف على نقطة واحدة مبدئية، ألا وهي: كيف نتعامل مع الدين، المتديِّن والجانب الروحي للإنسان؟

يجب أن يتم التنويه على سبيل ضمان الحد الأدنى من الصدق والشفافية، بأنَّ صاحب هذه الأسطر متديِّنٌ حتى ولو أبى، لهذا فإنَّه يعمل على تبيان أنَّ العلاقة مع الديانات على اختلافاتها، يجب أن تكون مبنية على الاحترام، مهما كانت الظروف والشروط، لأنَّ كلَّ الديانات مهما كانت هي ديانات صافية نقية، منبعها الصافي يؤكد ذلك، وهناك نصوص كثيرة – سماوية وغير ذلك – تؤكد هذا التوجه.

بالمقابِل، فإنَّ الكثير من أتباع هذه الديانة أو تلك، قد أقدموا على مجازر موثقة بين دفات التاريخ، سواء قتلا، تشريدا وحتى قهرا، إذ نجد المسلمين قد خاضوا حروبا من أجل نشر الإسلام، المسيحيون قد انتقموا من غيرهم ومن بعضهم البعض بشكل مفزع واليهود لا يزالون يقاتلون العالَم الذي يختلف معهم في نظرتهم إلى الحياة بعنصرية لم تنجب البشرية مثلها حتى الآن، حتى الرهبان البوذيين شاهد العالَم كلَّه ما ارتكبوه في حق المسلمين على الأراضي الآسيوية منذ سنوات، إذن الأمر يغشى الجميع، والكل متورط فيه.

يقترح الأستاذ ماركيز الاحترام كركيزة أساسية لأجل لمِّ شمل أتباع الديانات على اختلافاتهم، البوذي يحترم المسلم، الهندوسي يحترم المسيحي، الملحد يحترم الجميع.... الخ، وهذا لا يكون سوى بتصفية المشاعر، وتنقية القلوب والأرواح، لقد اكتفت البشرية من المذابح باسم الله تعالى زورا وبهتانا، لقد اكتفينا من النفاق، الشقاق ومساوئ الأخلاق، علي الجميع أن يدخلوا في ذلك الحوار الذي يجعل الجميع ينظرون إلى الحياة عبر منظار الحياة، والحياة فقط.

قبل أن يكون محمد مسلما هو إنسان، قبل أن يكون توماس مسيحيا فهو إنسان، قبل أن يكون سركان ياها هندوسيا هو إنسان وأهلا بالجميع؛ أليس مِن المفيد والصحي للإنسانية جمعاء، أن يحفر الإنسان في ذاته باحثا عن ذلك الطفل الذي يحاول التطرف بالتعاون مع التعصب خنقه، ما فائدتي في هذه الحياة، وما فائدة يهوديتي أو إسلامي إن لم احترم اليهودي والمسلم كما احترم نفسي؟

لم يرَ الأستاذ ماركيز سلعة رائجة بالباطل كما شاهد التحدُّث باسم الدين وتحت ستار الله والعياذ بالله تبارك وتعالى، وهي لسلعة فاسدة، خاسر من باعها وفاسد من اشتراها، لهذا على الإنسان أن يلتفت إلى إنسانيته، أن ينظر إلى روحه، أن يسلك أقرب الطرقات وأمثل الطرق وأيسر الطرائق لإزالة الشوائب والأدران عن أيَّامه، فهي معدودة ومحدودة صدقا وفعلا.

الحرب التي نشبت في بداية القرن الواحد والعشرين بين أبناء الجنس السلافي الواحد، والدين الواحد، هي السبب الأساسي الذي جعل ماركيز يعيد النظر إلى الديانات المختلفة عبر زوايا مختلفة، ولم يجد سوى الاحترام حلا مفيدا وشافيا، الاحترام وفقط.

لا يزال الضباب منتشرا على طول الطريق كما هو منتشر على طول الحياة وعرضها، لا يزال الإنسان شقيا حتى يثبِت العكس، ولا تزال السَّعادة عبارة عن أمنية يحلم بها

معظم الناس، لكنَّ الواقع بين حبالها قليل؛ هذا ما شهد عليه ماركيز عندما كان ينظر عبر النافذة إلى ذلك المنحدر السَّحيق، أين تمتزج المشاعر بالظلمات، لتقع على آخر المفردات، أين يجري الماء تحت الجسور كلِّها، قبل أن يتحوَّل بإرادته التامة إلى مثلجات.

طفلٌ يجري بأقصى سرعة على رمال أحد شواطئ البحر المتوسِّط عاريا تماما، حيث بإمكانكَ سماع ضحكاته مِن بعيد؛ هذه هي السَّعادة، وما دون ذلك سراب ينذر بالخراب؛ الأمر بهذه البساطة، بهذه السهولة وبهذا الأداء، الذي لا يقدِمُ عليه سوى المجنون بالمعنى قبل أن يكون مجنونًا بالمضامين.

خطوة بعد أخرى نحو الهَدَف، ومهما كان الألمُ المتطاير مع كلِّ حركةٍ، فإنَّه لا يتخطى كونه الثَّمن الطبيعي لما سيؤول إليه عملنا في آخر المطاف، على قَدْرِ اللّهب سيكون الصفاء، وعلى قَدرِ الصدق سيكون الوفاء، هذا ما هو مؤمِن به ماركيز كلَّما تقدَّمَ في عمر التجارب، تلك الخلاصات التي يحفظها كلُّ محارب مع بقايا شظاياه.

يترجَّل ماركيز، حوله ظلامُ دامِس، يخطو بعض الخطوات، قبل أن يشعل إحدى سجائره، فيظهر رأس السيجارة تلك بلونه الأحمر مذكِّرًا كلُّ مَن رآه بأنَّ السعادة بلا ألم لا أمل فيها، وأنَّ اللذة التي يشعر بها المدخن لا تكون سوى بمشاهدته لتلك الجمرة التي تؤدي دور المنبه للذاكرة واليقين.

حيث يسعى الإنسان/ماركيز نحو ما هو معجبٌ به، وما يدور بداخله، ويحيطُ به ويؤدي ما عليه لقاء التلذذ به، فإنَّ ذلك يرقى إلى القداسة أكثر فأكثر، لأنَّ المسألة الوجودية برمتها ليست سوى علاقة خاصة بين ما يمكن للفرد الإنساني الاستعانة به، وما يُمكن للمحيط التأثير عليه، وهذا ما فهمه الأستاذ ماركيز قبل غيره مبكِّرًا كما يبدو.

في عالَم تافه كأرض القراصنة (Die Piraten)، مِنَّ السهل على القرصان المفكِّر إعادة صياغة أفكاره من جديد وفق ما يريده ويبحث عنه، فالمنافسة الفكرية منعدمة، بينما الكثير من السذاجة، النفاق والسخافة تلوِّن هذه الثقافة، مِن الصعب على حَمَلَة المنطق أن يعيشوا على أراضٍ كهذه، وعليه فإنَّ الأمل يصاحب الألم عندما يرغبون في أداء واجبهم، ذلك المتمثل في البحث عن سعادتهم البعيدة.

ستقعُ يا قرصاني الصغير أرضا، بعدما تخزك احدى قطع الزجاج المتناثرة على رمال شواطئ القراصنة، ستخدشك حوافها، وستبكي كثيرا وأنتَ تحاول استيعاب ما حدث لك،

ستجلسُ جانبا، بعدما تتمكَّن مِن إزالة سبب الألم، لو كنتَ محظوظا طبعا، بعدها تقرر البحث عن وطن لا تحتوي رماله على شظايا الزجاج الصغيرة، تلك المختبئة على بساط سعادتك، ولا تظهر سوى لتحرمَكَ من ضحكاتك البريئة.

المشيُ قصد عبور ذلك الجسر، ليس سهلا ولا مشاعا، على السائر أن يتحلى بالشجاعة الكافية لبتر إحدى ساقيْه، لأنَّ قانون العبور يحتِّم قفز العابِر على رِجْلٍ واحدة خلال عبوره، وغير مسموح له الإبقاء على الرِّجْلِ الأخرى خاملة، بل يتوجَّبُ عليه قطعها استسلامًا لمشيئة حرَّاسِ جسور العبور، إن ما أراد راحة البال بفصل المقال.

هل سيضحي الأستاذ ماركيز بإحدى ساقيْه؟

الأمر غير مستبعَد، هو يعلم العواقب جيِّدًا، وهو يدرك أيضا مدى سوء النتائج لو لم يتشجع، ما لم يحاول، ما لم يجرؤ، ما لم يكن على قَدْرِ ما يحمله من إنسانية ومجون، إنَّ اللعبة أشبه بسيجارة تحرق فؤادَك لكنها تجعلك تبتسمُ – ولو مؤقتا – هيا يا ماركيز! كُن أنت، ولو لمرَّة واحدة وأخيرة في هذه الحياة.

يُشاهِدُ ماركيز أمواج العشب الأخضر في يومٍ ربيعي معتدل المناخ، أعجبه منظر الطبيعة وهي تتزيَّنُ باللون الجميل الذي ينسبه الكثير مِن المؤمنين على أرض "الجنَّة ما وراء البحر" للجنَّة، أعجبه أيضا نور الشَّمس وهو ينبعث بين الغيوم مشكِّلاً منظرا ساحرا يأسر القلوب والأفئدة، إنَّه الفصل الذي تبتسم فيه أرض القراصنة وسط الدموع والأحزان.

ما أغرب القراصنة!

يعيشون على هامش التاريخ، الأفكار والحضارة، وفي الوقت ذاته تجدهم يجتهدون كلَّ الاجتهاد في الجهر بالخصومة وشيطنة (Dämonisierung) كل مَن لا يعجبهم، فالرأي يبقى محترما مِن قبلهم ما دام رأيًا لا يناقض ما يقولون مِن تفاهات، ولا يُعرِّي ما يحملونه مِن سذاجة وسخافات، وهذه الميزة هي أساسية في التركيبة السيكولوجية لمعظم القراصنة الذين يسكنون "الجنَّة ما وراء البحر".

التنافس جزء من لعبة الحياة، الخصومة أيضا جزء آخر من الأيَّام والعداء كما المكر والخديعة أجزاء مهمة مِن هذه الدنيا، لكنَّ الأستاذ ماركيز، وَخلال دراسته لهذه المعطيات، فقد اكتشف أنَّ التعامل معها يختلف باختلاف الثقافات، إذْ تحتِّم الثقافة الشمالية على الانجليز مواجهة هذه الأزمات الإنسانية بتعقُّلٍ جليديّ، الاسبان مِثل

الطليان، يلعبون على وتيرة الصراخ وتفتيت كافة محتويات النفوس في العلن، الأجناس السامية/الشرقية يواجهون هذه المعضلات بواسطة هدوء ماكر، يتم به تفكيك كافة المعطيات، قبل إعادة بنائها بالطريقة التي تلائم مصالحهم، لكن وبالمقابل نجد القرصان على أرض القراصنة، إن ما وقع تحت طائلة هذه المصائب، تجده يوقف حياته، يستعمل كافة قواه العقلية والنفسية لأجل تحطيم منافسه، خصمه أو عدوه، فيشن عليه كلَّ الهجمات، بكافة السبل، الطرق والكيفيات، وبدون أيِّ توفير لأيِّ جهد لديْه.

يفكِّر الأستاذ ماركيز في فِكرة "الشيطنة" وهو قريب مِن اليقين بأنَّه ولو كان قرصانا يعيش على أرض القراصنة؛ إلاَّ أنَّه لا يستطيعُ أن يكون ضمن هذه الحلقة، في إطار جماعة يغفلون عن عَيْشِ أيَّامهم، مِن أجل تحطيم أيَّامِ الآخرين، فشل ذريعٌ يعيشه كلُّ قرصان، عندما تجده يسخِّرُ كلَّ ما يملك، مِن أجل شنِّ حملة إعلامية/دعائية، معظم تفاصيلها تقتات من الأكاذيب والبهتان هدفها تشويه صورة هذا أو ذاك، فقط لأنَّه لم يعجبه، أو أنَّه تفوَّق عليه في هذه القضية أو تلك.

هو بؤسٌ (Elend) من نوع خاص، يسبح في عمقه، هذا الذي يشربُ الأوهام كما يشربُ ماركيز النبيذ المعتَّق، هي حالة أشدُّ ضراوة على النفس عندما يتعلَّقُ الأمر بمراحل تكوين الفرد البشري ضمن بيئة تستقي وجودها وكافة تبريراته من توحشها الدائم، لهذا يجد الأستاذ ماركيز نفسه مضطرا لتغييب عقله بأفكاره التي لا تناسب هذه المواقع الرديئة، تلك التي يتنافس على شغلها القراصنة بكل ما لديْهم مِن قوى.

يتمنى ماركيز لو كان القراصنة مثل الطبيعة، هي تعيد ترتيب مكوناتها بنفسها، تعيد لكل جزء منها حياته بالشكل المناسب وعبر الطريقة المثلى، لا تزعج إلاَّ ذاتها، ولا تداوي سوى صفاتها، لتحافظ على دورة وجودها دون أن تضطر للوقوف على تفاصيل الحياة المعقدة، تلك التي تجعل مِن العيْشِ الكريم حُلُمًا بعيد المنال.

الأرض التي ينبتُ على سطحها الحقد بدل الورود، أرضٌ ناكرة للجميل، لا تستحق التضحية مِن أجلها، لهذا لقد فهم الأستاذ ماركيز الدَّرس جيِّدًا، فهم ما كان عليه فهمه منذ الصبا، لكنَّه تردد في الإعلان عما فهمه كثيرا، رضوخا لما جاء في الآية الخامسة مِن سورة يوسف – عليه السلام – وهذا ما جعله يحترم المواقيت والظروف، لأنَّه يدركُ بأنَّ الطبيعة لا تتسامح مع مَن يخترق قوانينها، حتى يتمكَّن مِن بلوغ طموحاته المشروعة وغير المشروعة معًا.

الأستاذ ماركيز واقفٌ على حافة الشاطئ يدخِّنُ سيجارته، يلبس تبانه القصير والمزيَّن بألوان العلَم الأميركي، ويطلق عيونه على امتداد أمواج البحر الأبيض المتوسِّط، يحاول توزيع أفكاره التي تجتاحه بجموح، كما يحاول أن يتلذذ بما يدخِّنه، هي لحظة سريالية يعيشها ماركيز، بعد انقضاء سنة دراسية مرهقة، ها هو يشرع في قضاء عطلته التي لن تطول كمثيلاتها، تلك التي تمتدُّ ما بين القراءة، الكتابة، التدخين ومشاهدة الأفق الأزرق يوميا.

فِكرة أن يعيش الفرد حياته بطولها وعرضها هي هاجس كلِّ قرصان على أرض القراصنة، لكن! لا أحد مِن هؤلاء القراصنة قدَّم لنا محددات "عيش" هذه الحياة، كما أنَّ ولا قرصان حدد لنا طول هذه الحياة أو عرضها، فهذه الأمور الثلاثة بقيت مجهولة، رغم ترديدها مِن طرف كلِّ سكَّان "الجنَّة ما وراء البحر" تقريبا، منذ طفولة ماركيز في الحدِّ الأدنى.

خطرت للأستاذ ماركيز هذه الفكرة بالتحديد، عندما سمع احدى إناث القراصنة تقول: "سأعيش حياتي بالطول والعرض"، بينما كانت تمرُّ بجواره، عندما كان مستلقيا على الرمال الذهبية وهو يقرأ رواية "حرّ بن يقضان" التي كتبها أحد القراصنة مِن منطقة حدودية غربية؛ إذن! كيف ستعيش هذه المخلوقة حياتها بالطول والعرض يا ترى؟ هل هي خارج نطاق العيش الآن؟ هل هي ميتة؟ هل هي بلا حياة في هذه اللحظة؟ أم أنَّ الأمر يتعلَّق بالظروف؟ هل ستشعر بأنَّها تعيش إن توفَّرت لها شروط أو ظروف بعينها؟ لما هذه الأطروحة ليست موجودة في قاموس الإناث لدى شعوب أخرى كالأميركيات مثلا؟ لما هي محصورة بحوض البحر المتوسط؟ بأوربا وشمال أفريقيا بالتحديد؟

الحياة التي ترغب أنثى القرصان بعيشها هي حياة المجون، التمرُّد على القيم والمبادئ، الانعتاق مِن كافة الالتزامات الغريزية والعاطفية، والسير عكس كلِّ ما يجعلها مسؤولة في هذه الحياة، فتفعل ما تريد، حتى وإن خالفت هذه الإرادة القوانين والشرائع، تسير على هواها، وتعيد تشكيل العالَم على حسب اعتقاداتها التي غالبا ما تكون ضدَّ الطبيعة البشرية قبل أن تعاكس المعاني الإنسانية.

تذكَّر ماركيز وهو يرمي بعقب سيجارته حدثا وقع أمام عينيْه عندما كان في مرحلة الجامعة، تذكَّر أحد القراصنة وهو يقول: سأذهب لأعيش حياتي الآن، وهو يهمُّ باللحاق بإحدى المواعيد الغرامية وقتئذ؛ لقد قرعت تلك العبارة جرسا مدوِّيا في روح ماركيز

يومها متسائلا: ما معنى أن يترك الجامعة ليعيش حياته؟ هل الفترة الجامعية في قاموس هذا القرصان ترادف معنى الوفاة؟

ذلك الشعور العميق بالظُّلْمِ (**Ungerechtigkeit**)، ذلك الذي يتشكَّل منذ بداية تشكُّل وعي القرصان الباطني هو الذي يصنع بداخل القرصان – سواء كان ذكرا أم أنثى – تلك الرغبة في القتال من أجل مخالفة ما هو سائد، وهو من الناحية المنطقية مشروع تماما، إنسانٌ يرفض قيما ومعايير لم يشارك في صناعتها، بل وجدها موجودة سابقا، وفُرِضَت عليه فرضا يرقى إلى درجة القهر، مِن الجائز له محاربتها بكلِّ ما يملك، لكنَّ الأستاذ ماركيز يذهب إلى أبعد مِن هذا في تحليله، مفترضا أنَّ هذه البنية الثقافية/العقائدية التي تكبِّل القراصنة وتمنعهم مِن العيش قد انهارت، إذن ما البديل؟ هي ستبقى الحياة مشاعا، حتى يشعر القرصان بأنَّه حي يرزق؟

هناك تجارب مهمة لقراصنة هجروا أرض "الجنَّة ما وراء البحر"، وهُم يعيشون على أراضي لها ثقافات متنوعة وبعضها لا تمت بأيَّة صلة لما هو موجود على أرض القراصنة، ومع ذلك فكرة أن "أنا ذاهب لأعيش حياتي" لا تزال حاضرة في أدبياتهم، خاصة الكتَّابَ منهم والمؤلفين، مما يدلُّ على أنَّ الخلل ليس في تلك الثقافة الموروثة فقط، بل الخلل الذي صار عطبا محوريا في العمق الذي يبعث في القرصان الحياة، هو كامِنٌ في أعماق القرصان عينه كقرصان بالصيغة الوجودية، تلك التي ولدت ميتة، فاقدة لكافة مبرراتها وجودها منطقيا وشعوريا.

ترتفِعُ أصوات الحياة مغردة كلَّ يوم بلحنٍ جديد ومتجدد، تغازل أجمل اللحظات، تشرِّحُ أرقى التطورات وتتداعى أمام أنبل القيم والمبادئ، لتزيِّن الروح بألوانٍ سرمدية راقية، فتعطي للوجود الإنساني حضورا متميزا، يستقي تواجده مِن ضرورة استمرارية العيش، ويستلهم مشروعيته مِن شريعة البقاء لديْه.

بين الحين والآخر، يسير ماركيز على طريق الذكرى، يتأسف على لحظات يعتبرها ضعفا، ويفخر بفترات يعتبرها انتصارات – ولو كانت بسيطة – مما يجعله متأرجحا بين ثنائية تتكرَّرُ بداخله كلَّ وقت وتحت أيٍّ مِن الظروف كانت، إنَّها مضامين الغريزة ومثالب العقول، فإن ما تصارعت كانت نتائجها اليقظة، وإن ما تصارحت كانت نهاياتها الارتقاء نحو المزيد مِن المحببات.

يتذكَّر الأستاذ ماركيز الكثير مِن هذه المحطات على اختلاف سواقيها، تلك التي صنعت منه المغامر، المتردد، المقدام والمجنون، لحظات صهرته كما يُصهر الذهب، وأخرى

كانت قاسية عليه لدرجة أنَّ ذاكرته تستدعيها كما يستدعي عقله مذاق الأدوية المرَّة، لهذا كان له أن يغطِّي على جوانب عديدة مِن هذه اللحظات، لتجعل مِن ماركيز، الإنسانَ الذي هو عليه اليوم.

ماركيز في الحياة أشبه بإنسان يغرق، يحاول التشبث بما يمكن لجسمه الوصول إليه، هو يمسك بعمله في التعليم، يحاول زيارة أماكن العبادة، يقرأ ويكتب، يسافر وَيلتقط صورا فَيتشاركها مع العالَم على مواقع النت، يكوِّن صداقات وعداوات، يقدِّم الهدايا وينتقد محيطه بالكلمات، وكلُّ هذا بحثا عن معاني لليومي، معاني سُرقت منه منذ أمدٍ بعيد.

صعبٌ أن تفهم ما معنى أن تعيش قرصانا على أرض القراصنة، ضدَّ الفطرة، الغريزة، الطبيعة والتيار الموجود منذ الأزل، والأصعب أن تدرك المعاناة التي تتغلغل بداخلك كلَّما اقترب ذهنك من ملامسة النجاة، يفهم الأستاذ ماركيز شِعار القراصنة على أرض "الجنَّة ما وراء البحر" بشكل عميق، تلك المقولة غير المصرَّح بها، غير المُعلنَة، والقائلة: "المعاناة هي حياتنا اليومية" (Leiden ist unser tägliches Leben)؛ لكنَّه وبالمقابل؛ هو يعمل بكلِّ طاقاته لتجاوز ما يرغب الجميع من حوله إيقاعَه فيه بكلِّ ما يملك من أفكارٍ وموارِدٍ.

عبر منظومة متماسكة من الفساد وسوء الأخلاق، تمكَّن القراصنة مِن تحويل الأزمات المختلفة إلى نهج خاص بهم للعيش، وهذا ما جعلهم يتميَّزون عن غيرهم، فكلُّ مظاهر الحياة على أرض القراصنة توحي بتلك المعاناة التي صارت حياة يومية يتقاسمها القرصان مع أخيه القرصان بلؤم منقطع النَّظير، فكلَّما زاد القرصان مِن غبن أخيه كان له حظ وفير من الراحة النفسية لديْه.

على أراضي القراصنة صارت المؤسسات آلات معنوية تكسر الوافدين إليها، تبدأ يومكَ بأزمة نقل، فتتدافع كالحيوان بحثا عن مكان يقلك نحو عملك، وعندما تصل إلى تلك الزريبة التي يسمونها مجازا "مؤسسة تربوية"، تبدأ المصائب بالسقوط على فؤادك من كلِّ جانب، انطلاقا مِن المحيط الذي يعمل على كسر إرادتك، ووصولا إلى اضطرارك للتعامل مع أناسٍ هدفهم في الحياة هو تخريب كلَّ جميلٍ مهما كلَّفهم ذلك من تكاليف.

المستشفى على هذه الأرض أقذر مِن المجاري، المدارس مصانع للجهالة والجهل، البنوك صيغة متطورة للسرقة والاحتيال، الأسواق كذبة كبرى، المناسبات محطات نفاق تضع الكثير من مواد التجميل، دور العبادة وجه آخر للكذب على الله سبحانه باسم الله عزَّ وجلّ، الشواطئ مكبات نفايات، الغابات عبارة عن مراحيض عمومية وجماعية،

الثانويات/الجامعات لا تتعدى كونها دورا للمواعيد الغرامية بين المراهقين والمراهقات، المؤسسات الإدارية مفرزات للرشاوي والمكر، بينما الثكنات والمراكز الأمنية هي تلعب دور التحوُّش بامتياز.

تأمَّل الأستاذ ماركيز سيجارته بين أصابعه قبل أن يأخذ نَفَسًا آخر منها، ثمَّ هَمَسَ في أُذُنِ الزَّمَن قائلا: لقد وُلِدتُ قرصانا على أرض القراصنة للأسف، لكنَّني بتوفيق من الله عزَّ وجلّ، لـن أموت قرصانا على هذه الأرض البائسة مهما حصل.